الأساطير الاســلامية

للدكتور جواد علي

من الموضوعات الجديرة بالعناية موضوع : « الأساطير الإسلامية وأثرها على العقلية الأوربية » ، وهي أساطير عربية جاهلية اختلطت بعناصر أعجمية في العصور الإسلامية التي امتزجت فيها ثقافات مختلفة متنوعة .

ولما بحث العالم الإسباني « ميكول آسين Miguel Asin » في « الكوميدية الإلهية » « Divina Comedia[1] » للشاعر الإيطالي الشهير « دانتي » « Dante[2] » ، تطرق إلى ذكر العناصر التي أخذ منها هذا الأديب « الفلورنسي » الكبير تلك الصورة البديعة التي رسمها من أوربية وشرقية ، وقد اضطر إلى التعرض للقصص الإسلامية التي كانت قد شاعت في إيطاليا أيام هذا الشاعر ، فقسمها إلى أقسام وفصول مثل الأساطير الأوربية التي أخذت من « معراج الرسول » ، والقصص التي انتزعت من وصف الجحيم عند المسلمين ، ثم القصص التي أخذت من أوصاف الجنة ؛ وبحث في القصص المختلفة المعروفة مثل أصحاب الكهف والخضر وقصة «بولوقيا» والرحلات المخيفة إلى البحار، وقصص الحيتان البحرية التي تظهر في البحر على سورة جزر عائمة[3] .

وقد بحث مستشرقون آخرون في تأثير القصص الإسلامية في القصص الأوربية ، وفي أثر الأساطير العربية في أساطير أوربا في القرون الوسطى[4] ، وفي كيفية انتقالها إلى أوربا . وعلى بعض هذه القصص طابع إسلامي واضح ، وعلى بعضها أثر التكييف الجديد الذي طرأ عليها في المحيط الأوربي الذي حلت به .

ومن الأساطير الأوربية القديمة قصص مغامرات البحارة ومخاطرات البحار وعجائب المخلوقات في هذه المحيطات الشاسعة ، وهي قريبة من القصص العربية الواردة في كتاب عجائب المخلوقات[1] ، وفي الكتب المؤلفة في حياة الحيوان[2] ، وفي كتب السياح العرب الذين دونوا ما شاهدوه في تلك البحار . ومن أمثال هذه الأساطير الأوربية القريبة من الأساطير العربية قصة رحلة « هارولد النرويجي[3] » ، ورحلة « كورم الدانماركي » « Gorm of Denmark » ، ورحلة « ماندوين الكلتي[4] » ورحلة « أبناء كونال درك أو كورا[5] » ، ورحلة « سانت برندن[6] » وهي رحلة حج بحرية مشهورة جداً لراهب إيرلندي وقد جمع فيها عدة قصص لرهبان آخرين مثل « St Barintur » و « St Mernoc » و « St malo » و « St amorus » ، ومجموعة الرهبان « الأرموريكن » « Armorican monks[7] » وقد انتشرت في القرن العاشر للميلاد بين المسلمين كثير من القصص البحرية ، ويعود ذلك إلى توسع الحركة التجارية في خليج البصرة ، وبين سواحل البلاد العربية ، وسواحل الهند والصين وإفريقية الشرقية ، وقد تفرعت منها قصص عديدة ، منها مادون في الكتب ومنها ما ذكر عرضاً بصورة مختصرة أو مبتورة. ومن هذه القصص قصة البحث عن الخضر ، وقصة رحلات السندباد البحري وقصة الجزيرة الخضراء وقصص الحيتان[8] .

وقد قارن المستشرق الهولندي « دي كويه » بين قصة «سانت برندن» ، وهي من القصص الإيرلندية وبين رحلة السندباد البحري ، وبعض قصص بحرية ذكرها الشريف الإدريسي ، وقصة « بولوقيا » « Bolugiya »

---

(١) Miguel Asin,Islam and The Divine cbmedy London 1926

(٢) Pietro -Fraticelli, Daute operc minori di dante Alighieri3 vols Flereuee 1908-12

(٣) Asin P, 204

(٤) أثر العرب في الغرب . تأليف جورج سيديو ترجمة الدكتور فؤاد حسنين القاهرة ١٩٤٦ ، ٢٤ .

(١) راجع كتاب « عجائب المخلوقات » للقزويني طبعة وستنفلد ، ١٨٤٩ .

(٢) كتاب الحيوان للجاحظ .

(٣) Asin p, 204

(٤) Dancona p, 105

(٥) Orof I, 93-126

(٦) Shroder Sanct Brandeu Erlangen 1871

(٧) Voyé, 47

(٨) الثعالبي .

اختار « سانت برندن » الذهاب إلى قلعة نائية لم تكن مأهولة فى جزيرة لم تعرف إنساناً من قبل ، ولشد ما تملكه العجب حينما وجد مائدة غنية بأنواع الأطعمة والأشربة فأكل منها وشبع وأطعم أصحـــابه ولم يؤثر ما أكلوه على كية الطعام[١] .

وفى قصة « بلوقيا » التى رواها « عبد الله بن سلام » وهو يهودى اعتنق الإسلام تشابه مع قصة « سانت برندن » ، فبلوقيا وهو حبر يهودى ، وكان والده « أوشـيا » من أحبار اليهود وأغنيائهم أراد البحث عن « محمد » وأمته ، فطاف بلاد الشام حتى بلغ جزيرة من جزائر البحر ، فإذا هو بحيات كأمثال الإبل عظما كلهن ثم مر بشجر كثير وبعالم غريب يشبه ذلك العالم الذى مر به ذلك الراهب[٢] .

وقصة « بلوقيا » هذه التى قصها الثعالبى استناداً على رواية « أبى بكر بن عبد الله الحزدق » باسناده عن عبد الله بن سلام هى قصة ، وإن كانت مطبوعة بطابع إسلامى إلا أنها من القصص الإسرائيلية البحت . ولابن سـلام قصص أخرى تحمل نفس الطابع ، ويحشره العلماء وأصحاب الحديث لهذا السبب فى تلك المجموعة التى اشتغلت فى إدخال « الإسرائيليات » إلى المسلمين بصورة حديث عن الرسول أو موعظة من المواعظ[٣] .

ووجد هذا الراهب فى جزيرة من الجزر أشجاراً فاقتطع من أغصانها مقداراً وأوقد ناراً ليصنع طعاماً ، فلما تأججت النار تحركت تلك الجزيرة العظيمة وأخذت تموج ، فرمى الراهب وأصدقاؤه بأنفسهم فى اليم طلبا للنجاة ؛ إذ لم تكن تلك الجزيرة سوى سمكة عظيمة من نوع الحيتان البحرية[٤] .

ويرى بعض المستشرقين مثل « دى كوية » « De goeje » و « Reinaud » و « D' avenyae » ، أن هذه الجزيرة تشبه الجزيرة الأولى التى وصل إليها « السندباد البحرى » وأصدقاؤه[١] وقصة السندباد من القصص العربية المعروفة ولعلها النموذج الأصلى لقصة « روبنسن كروسو » .

ونجد مثل هذه القصص فى الكتب الدينية القديمة مثل : « التلمود » وهو بعد التوارة عند اليهود وعليه عندهم العمل فى الأحكام الفقهية[٢] . ومثل « الأفستا » « Avesta » كتاب الفرس المجوس . وقد انتشرت أمثال هذه القصص بين العجائز والأطفال ولا زالت معروفة حتى اليوم .

وزعم نفر من المستشرقين أن قصة « سانت برندن » ، والقصص المشابهة لها هى من القصص الإيرلندية القديمة ، وقد عرفها الشرق عن طريق الصليبيين أو عن طريق أسبانيا ؛ ودليلهم على ذلك أن سمكة « الحوت » التى وصفت بالكبر والضخامة لا تعيش فى مياه الشرق[٣] .

وهذا الرأى لا يستند بالطبع إلى دليل ملموس ، ولا يعقل انتقال هذه القصة من إيرلندة إلى الشرق . وهنـاك أدلة علمية واضحة تنفى انتقالها من إيرلندة . فالجاحظ الكاتب البصرى وقد عاش فى نهاية القرن الثامن للميلاد إلى ما بعد منتصف القرن التاسع « ٧٨١ — ٨٦٩ م » يصف قصص البحارة عن الحيات البحرية فيقول : « فقد زعم هؤلاء أنهم ربما قربوا إلى بعض جزائر البحر وفيها النياض والأودية واللحاقيق وأنهم فى بعض ذلك أوقدوا ناراً عظيمة فلما وصلت إلى ظهر السرطان ساح بهم وبكل ما عليه من النبات حتى لم ينج منهم إلا الشريد[٤] » .

ويظهر من كتاب الحيوان أن مثل هذه الأساطير كانت معروفة فى العراق ، وعلى الأخص فى البصرة فى أيام الجاحظ ، وربما كانت معروفة قبل عصر الجاحظ ، وأن قصة « السندباد البحرى » التى شاعت بين الناس فى القرن العاشر وما بعده أخذت من هذه القصص البحرية . وقد تطرق الغزالى فى كتابه « إحياء

---

(١) Rossi vittorio Storia della Lettera tura jtaliana, vol 1-5 ed milan 1911

(٢) عن عبد الله بن سلام راجع دائرة المعارف الاسلامية فى هذه المادة قصة « بلوقيا » الثعالبى . قصص الأنبياء ص ٢٠٧ .

(٣) Encyclopiedia of jslam vol, 1, artic, abdallah ibn Salam.

(٤) Asin p, 20L ذكرت ذلك برحلة عبد المطلب الحكيم . Chauvin vol 7 p, 46

(١) Asin p 207

(٢) Asin p 207 Haotinga arte Telmud.

(٣) Asin Abenmassarra, Appendix 1-133

(٤) كتاب الحيوان للجاحظ ص ٣٣ ، ٣٤ .

علوم الدين » إلى ذكر الحيتان[١] .

أما الجزيرة الثانية من مجموعة الجزر التى زارها القديس فهى جزيرة نائية كانت مأهولة بالطيور المتكلمة وكانت أرواحها من طبيعة أرواح الملائكة[٢] . وفى قصة « بلوقيا » مثل هذه الطيور . فلما سأل « بلوقيا » أحدها قال « أنا من طيور الجنة ، وأن الله قد بعثنى إلى آدم بهذه المائدة لما هبط من الجنة ، وإنى كنت معه حين لقى حواء وأباح الله له الأكل ؛ وأنا هاهنا من لدن ذلك الوقت ، فكل غريب وعابر سبيل من عباد الله الصالحين يمر بها يأكل منها وأنا أمين الله عليها إلى يوم القيامة . فقال بلوقيا ولا تتغير ولا تنقص؟ فقال طعام الجنة لا يتغير ولا ينقص. قال بلوقيا أفآكل منها ؟ قال كل ، فأكل حاجته ، ثم قال له أيها الطائر وهل معك أحد ؟ فقال معى أبو العباس يأتينى . فقال ومن أبو العباس قال الخضر عليه السلام ، فلما ذكر الخضر وإذا به قد أقبل وعليه ثياب بيض فما خطا خطوة إلا نبت الحشيش تحت قدميه . ثم قال غمض عينيك فغمضهما ، ثم قال له افتح عينيك ففتحهما فإذا هو جالس عند أمه ، فسألها من جاء بى إليك ؟ قالت طير أبيض يطير بك بين السماء والأرض فوضعك قدامى[٣] » .

وتشبه هذه الطيور الطيور المذكورة فى قصة : « سانت مكاريوس » « St. macarius[٤] » . وقد ورد فى الأحاديث المنسوبة إلى الرسول ذكر الطيور البيضاء ، وقد فسرها المفسرون بأنها الملائكة[٥] . وهو تفسير يتفق مع مذهب الأوربيين فى تصوير الملائكة على أنها على صورة طيور بيضاء ذات جناحين طويلين .

ووجد « القديس » فى جزيرة رهباناً كانوا يقتاتون بخبز الجنة لا يعرفون الهرم ولا يصل إليهم المرض ، وكانوا لا يتكلمون

(١) إحياء علوم الدين ج ٣ ص ٣١٨ طبعة القاهرة ١٣١٢ .

(٢) Asin p, 209 قارن ذلك بكتاب السيوطى شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور القاهرة ١٣٢٩

(٣) العرائس ص ٢٠٨ وهناك قصص تشابهها فى القنات الأوربية . راجع حاتم سليمان .

(٤) Asin p, 210 .

(٥) Asin, 211 تذكرة ص ٨٧ مختصر تذكرة القرطبى الشعرانى القاهرة ١٣٠٨ .

وفى قصة « ذى القرنين[١] » وقصة « جزيرة الحكماء[٢] » . شبه كبير بهذه القصة . أما « العنب » العجيب الذى عثر عليه القديس فى الجزيرة فله أصل فى الحديث المنسوب إلى الرسول إذ يروى أن جماعة سألوا الرسول عن الكرم وهل ينبت فى الجنة ، فأيد الرسول وجوده فيها ، وأبان لهم أن الحبة الواحدة لتكفى الرجل وعائلته[٣] . وهو يمثل على كل حال رأى الناس فى العنب وهو رأى يشابه رأى الأوربيين فى عنب جزيرة القديس .

وفى الأدب العربى عدد لا يحصى من هذا النوع من القصص وقد جمع قسما منها الثعالبى فى كتابه « قصص الأنبياء » ونجد طائفة أخرى فى تفسير الخازن[٤] ، وأكثرها من صنع من أسلم من اليهود مثل عبد الله بن سلام وكعب الأحبار ووهب ابن منبه وأضرابهم . وروى بعضها عن عبد الله بن عباس[٥] .

وتعرف هذه القصص عند المسلمين « بالإسرائيليات » . والظاهر أنها عرفت عند المسيحيين كذلك إما عن طريق الكتب الدينية والتفاسير الموضوعة على هذه الكتب ، وإما عن طريق اليهود الذين انتقلوا إلى أوربا فى عصر الإمبراطورية الرومانية . غير أن وجود العناصر الإسلامية فيها يشعر أنها انتقلت بعد ظهور الإسلام ، ولعل ذلك حدث بعد اختلاط الأوربيين بالعرب فى الأندلس وفى إيطاليا وفى بلاد الشام وفلسطين ، وبعد وقوفهم على كتب الأدب العربية ولا سيما كتب القصص منها ، وفيها طائفة كبيرة تلائم العقلية الأوربية والذوق الدينى الذى كان يتحكم فى نفوس أوربا فى القرون الوسطى حيث كان الحكم البابوى هو الحكم السائد ، والثقافة الدينية هى الثقافة السائدة ، وفى هذه القصص لون من ألوان هذه الثقافة .

جواد علي

(١) العرائس ص ٢١١ .

(٢) Asin p 215 خريدة ص ٩٣ — ٩٤ .

(٣) مختصر تذكرة القرطبى للشعرانى ص ٨٧ Asin .

(٤) الخازن ، تفسير القرآن الجليل المسمى لباب التأويل فى معانى التنزيل للخازن القاهرة ١٣١٨ . تنوير المقياس من تفسير ابن عباس للفيروز آبادى القاهرة ١٣١٦ .

(٥) عن عبد الله بن عباس راجع Encyclopoedia of yrolam vol p 19noeldeke yeschichte des gosran vol 2 p 190.